

مرة أخرى : الأمريكيون وإعادة تشكيل المنطقةناهض منير الرئيسالنائب عن مدينة غزة

بحث عن نص تصريح كولن باويل حول ما سيؤدي إليه ضرب العراق من ((إعادة تشكيل الشرق الأوسط بما يعزز المصالح الأمريكية)) حسب قوله ، وكنت قد سمعت التصريح من إحدى الفضائيات . واستغربت بعد ذلك إذ غاب النص عن صفحات الصحف اليومية في اليوم التالي . ويبدو أن وكالات الأنباء التي تنقل تصريحات المسؤولين الأمريكيين امتنعت قصدا عن ترديد التصريح بنصه الكامل لأنه كان موجها للجمهور الأمريكي بقصد تعبئته لتأييد قرار الحرب وتخفيف أثر الحملة العالمية المناهضة للحرب على ذلك الجمهور عن طريق رشوته بكلمة المصالح التي سيناله من تعزيزها ما يناله رعايا الدول الاستعمارية عادة من عائدات استعمار الأمم الأخرى . ولم تر الجهات التي توجه الإعلام أن من الحكمة تكرار إعلان الحرب ضد الشرق الأوسط وبالتالي استنفار الأنظمة كلها في المنطقة ، وهكذا وجدنا التركيز في نشر النص ينصب على إعلان الحرب ضد العراق وحده ، وتلك هي السياسة التي اتبعتها الولايات المتحدة وسوف تتبعها لاحقا : استنفاد كل قطر في المنطقة على حدة حتى تفرغ من الجميع بأقل التكاليف ودون أن تحدث أية مقاومة ...

هذا لا يعني أن المسؤولين الأمريكيين السكارى بخمر القوة إلى درجة العربة يقيمون وزنا كبيرا أو يعملون حسابا دقيقا للمنطقة وللمسؤولين في المنطقة . ولكن الخبراء المهنيين الذين يديرون الحرب الإعلامية من وراء مكاتبهم في نيويورك ، لا تفوتهم أشياء كثيرا ما تفوت القادة السياسيين . ولذلك يتداركون آثارها بعد حين .

وسواء أكان نص التصريح يتكلم عن ((إعادة تشكيل الشرق الأوسط)) كما قال باويل ، أو يتكلم عن ((إعادة تشكيل القوى في منطقة الشرق الأوسط بعد الزلزال الذي سيحدثه الهجوم على العراق)) كما قال موشى يعلون رئيس أركان جيش الاحتلال في اليوم التالي ، فإنه تصريح معاد ومكرر . وقد تحدثنا مرارا من قبل في هذه الأسبوعيات عن الواقعة التي رواها الأخ صائب عريقات أمام المجلس التشريعي إثر عودة الوفد الفلسطيني من كامب ديفيد عام ٢٠٠٠ . ونعيد روايتها هنا : فعندما رفض الرئيس ياسر عرفات المشروع الإسرائيلي الذي يعرض على الفلسطينيين سطح أرض المسجد الأقصى ويمنح ما تحت المسجد لإسرائيل ، تولى الرد على ياسر عرفات جورج تينيت (رئيس السى آى إيه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية) الذي قال مهددا في معرض الرد بحضور الرئيس كلينتون " إن منطقة الشرق الأوسط بشعوبها وحدودها قابلة للتغيير!"

لم يأت الإعلام العربي في الأيام والشهور اللاحقة على ذكر هذا التصريح الصاعق الذي أعلن لأول مرة هذه النوايا الخطيرة والذي لا يماثله أي تصريح آخر في خطورة مضمونه وفي إفصاحه بنزق وفضاعة عن مرتكزات وأهداف السياسة الأمريكية حيال المنطقة .

سايكس - بيكو - باويل

ولم يكن الأمر يحتاج إلى محللين متعمقين في دراسة السياسة لكي يفهم المرء مباشرة أن لدى الولايات المتحدة مشروعا لإعادة تقسيم البلدان العربية من جديد بعد أن تقبلت المنطقة عبر السنين تقسيمها القديم الذي رسم في العقد الثاني من القرن العشرين ، قبل نهاية الحرب العالمية الأولى خريطة مستحدثة لها على يد وزيرى خارجية بريطانيا وفرنسا (سايكس وبيكو) ، وقد مارس حكام الأمة دورهم عبر السنين حراسا غيورين على ذلك التقسيم وتلك التجزئة . ومع ذلك لم يول أحد تصريح تينيت ما يستحقه من عناية ومن عرض على الرأي العام الشعبى العربى .

من هنا لم ير كولن باويل مانعا ولا حرجا في النطق بما نطق به ببساطة ، كأنه يمضغ قطعة من الشوينج جم الأمريكي وبتفاتها في وجه أصحاب الشأن . ولم يقم اعتبارا لأولئك الذين اعتادوا أن يكونوا حراسا على التجزئة القديمة ، معتقدا أنهم في عجزهم لن يبالوا بما يستجد ، وإنما سيكون مهمهم أن يستمر الأمريكيون في تثبيتهم بوظيفة حراس على التجزئة الجديدة . وماذا عن الشعوب؟! لا حساب للشعوب لأن العرب والمسلمين أنصاف بشر .. ليست لها إرادات ولا كرامات ولا حقوق .. ولا ينتظر منهم أن يشطحوا ولا أن ينطحوا ما دام في مذاودهم شيء من العليق يطأطئون رؤوسهم إليه !! فتلك هي صورتنا التي أصبحت راسخة في الذهن الأمريكي ، والتي عززتها لديه شواهد الحال العربي المشغول بالترهات والنزاعات الإقليمية المفتعلة وعبادة الأصنام البشرية ، دون أن تحركه الأخطار الحقيقية والاعتداءات الأجنبية على الأراضي وعلى البشر وعلى المقدسات وعلى التاريخ وعلى إنسانية الإنسان .

صينية الحلوى

بأي مشينة يتكلم كولن باويل عن ((إعادة تشكيل الشرق الأوسط)) ، وهو المقيم في الغرب الأقصى؟ وهل الشرق الأوسط صينية حلوى يخرطها على هواه بحساباته حلوانيا صنعها بيديه وخبزها في فرنه؟ أليست هذه أوطانا لبشر لهم حياتهم وحقوقهم وأحلامهم؟ وبأي وثيقة وشريعة أصبح لمن يملك الصواريخ عابرة القارات والقنابل النووية سلطان يخوله حق رسم الخرائط البشرية فوق الكرة الأرضية؟ ومتى كانت مصائر الناس رهنا بإرادة القوة العارية الرعناء في غير أزمئة الظلام والتخلف؟

ثم تعالوا أيها الأمريكيون وحدثونا : هل جزاء الأمة التي أكلتم خيرها وأضاتم مدانكم بنفطها وحركتم معاملكم بطاقتها وملأتم بنوكم بأرصدتها ، طوال أكثر من نصف قرن حاسم من الزمان ، أن تاتوا في مطلع القرن الجديد لتقطعوها أجزاء بعد أجزاء ، وتجعلوا أجسادها الحية أشلاء فوق أشلاء؟!!

أي ثار بانت لكم مع العرب والمسلمين؟ وأية عداوة مستعصية مستحكمة ما زلتم تضعونها رهن أعينكم وتنتلقون بوحى منها لتفسدوا وتخرّبوا وتدمروا الأوطان التي كان لها في التاريخ فضل إشاعة النور والمعرفة ونقل العلوم من العالم القديم إلى العالم الجديد؟

ألسنم ناكرين للجميل الحديث كما أنتم ناكرون للجميل القديم؟ أي لؤم هذا؟ وأية خسة؟ وأية نكسة للنتقدم والرفق والحضارة والأخلاق هذه التي تقودونها ، وبئست القيادة والزعامة!

كيف يتجاسر لكع؟

ولكن مهلا! فإن اللوم كله لا يقع على عاتق الأمريكيين وحلفائهم البريطانيين ، ولا على عاتق الغرب ومن يشايعه في الشرق وحسب . ولكن جزءا كبيرا من اللوم يقع على عاتق كل من ساهم في بقاء ضعف المنطقة وانقسام المنطقة وفقر المنطقة على حاله منذ سقوط الدولة العثمانية حتى اليوم . فلا أحد يمكنه أن يقول إن ذلك الضعف والانقسام والفقر كان قدرا مقدورا لا فكاك منه ولا مندوحة عنه! وكيف يجترئ وقح على ادعاء أن ضعف المنطقة هو قدرها إذا كانت قد حققت في ذاتها وصفاتها وكيانها السياسي ذات يوم قوة لم يطاولها أحد من الأقوياء ، وإذا كانت تتوفر لها اليوم جميع عناصر القوة : بشريا ومساحيا وموقعا وخامات حيوية وعنصر عقيديا وثقافيا يجمعها ويشد أواصر بعضها إلى بعض؟ أم كيف يتجاسر لكع على ادعاء أن انقسام المنطقة هو قدرها إذا كان تاريخ انفراط وحدتها ما زال من قرب العهد بحيث يقصه الأب الذي شهده على الابن الذي لم يشهده! وإذا كانت وحدة الشعوب في لسانها وفي عقيدتها وفي تاريخها وفي مصالحها وفي أمانيتها حقيقة صارخة لا يتغافل عنها إلا أولئك الذين يكرهون الحق لأنهم على الباطل؟ أم كيف يفترى كذوب بادعاء أن فقر المنطقة هو قدرها إذا كانت ثرواتها الظاهرة والدفينة هي التي أغرت بها المستعمرون القدامى والجدد ، وإذا كانت مواردها المتكببة على الموائد الخضراء والليالي الحمراء في الغرب قصصا تروى بذهول سيرة كبراء الزمان الذين يشترون أوقات متعتهم المحرمة بمستقبل الأجيال؟

كل ذي مصلحة وهوى واكتساب يقول حينما يحين وقت الإشارة إلى قصورنا الذاتي ومسؤولية ذلك القصور عن الحضيض الذي نتردى فيه اليوم ، والذي انكشفت وهدته سحيقا في محنة فلسطين والعراق ، يقول : دعونا لا نجلد ذاتنا !

الوارثون والمتطحنون

وإذا كان جلد الذات حماقة وشذوذا فإن خلط الصالح بالطالح والمحسن بالمسيئ غفلة وجريمة . وعلى الجميع أن يقولوا كفى فقد أضاعت قلة من الوارثين المحسوبين على الأمة سواد الأمة . وقد عبث هؤلاء الذين لا يجهلهم أحد وتلهوا في الوقت الذي كان يتطلب الجد واتخاذ القرارات الكبيرة . وقد فضلوا قشور الألقاب والمناصب والسلطان الخاصة بذواتهم على لباب المكانة الجديرة بالمنطقة وشعوبها بين الأمم . وقد شغلوا بالمقتنيات الفاخرة والعربات الفارهة عن توطين العلوم والمعارف الحديثة التي تضمن القوة وتؤمن الدول من غائلة الأقوياء . وقد عرفوا كل شيء عن سرقات أقاربهم وخاصتهم وأعاونهم وحراس كياناتهم فتركوهم ينهبون وشجعوهم ورططوهم لأنهم أرادوهم مكسوري الأعين من ناحية ولم ينكروا عليهم من الناحية الأخرى أن يفعلوا ما يفعله سادتهم .

وليس شأن النخب وقادة الأحزاب والأطر المنظمة (الحاكمة بخاصة) أفضل من شأن الكبراء الحاكمين ! فقد تنطحو للقيادة ودعوا إخوانهم إليهم ثم باع بعضهم مبداه بمركز أو منصب أو صفقة مربحة ، وضل آخرون طريق الصواب دون أن يصارحو أنصارهم بالحقيقة منذ بدأت الحقيقة تتضح لهم .

يجب فضح هؤلاء جميعا وتحميلهم مسؤولية المصير الأسود الذي يجهزه الأمريكيون للمنطقة ومسؤولية الذل الذي يعانیه الكبير والصغير في هذه الأمة . ويجب عزلهم وتنحيتهم بأى ثمن . ويجب أن يعرضوا في العراق دون أن يتاح لهم التداري وراء الآخرين والتستر وراء كلمة : دعونا نكف عن جلد الذات .

إن المستوى المنحط الذي يتمرغ هؤلاء فيه لا يناسب مستوى الأمة بأى حال . فالأغلبية العظمى من الناس ، عدا المستفيدين الأوباش ، صارت على علم واطلاع كاف بما تسير عليه الأحوال في بلادهم وفي العالم . وهذه الأغلبية الصامتة تعرف أن العائق الوحيد دون الوحدة هو نواظير التجزئة الحريصون على ألقابهم والمرتهنون لإرادة الأجنبي المطلع على عوراتهم ، وأن العائق الوحيد دون توطين العلوم الحديثة هو نواظير الشركات الأجنبية المعتادة على (شفط) موازنات الدول أثناء بيعها المواد الاستهلاكية أو الأسلحة الدفاعية التي صارت في بلادها تعد جيلا قديما لا مكان له في المخازن ، وأن العائق الوحيد دون الشورى الحقيقية والديمقراطية المناسبة هو أولئك الذين يعاملون الأوطان كما لو كانت ملكا شخصا يتصرفون به كما يشاؤون . وهم يلفقون مظاهر ديمقراطية غايتها إرضاء نزعة الأمريكيين للتظاهر بأنهم ينشرون رسالة الديمقراطية في العالم ، وحقيقتها توصيل أعوان الحاكم إلى هيئات التمثيل بواسطة خبراء التزوير والتلاعب ، لكي يعيدوا بدورهم انتخاب الحاكم !

لا أقل من هذا !

أحس أن ذلك كله قادم وأن الخطوة الوحيدة الكفيلة بإقناع الناس أن يمنحوا هؤلاء فرصة أخرى هي أن يسارع هؤلاء - اليوم قبل الغد - بعقد مؤتمر عربي أو إسلامي عام يعلنون فيه إقامة وحدة أو اتحاد بين الدول ، مع برلمان عربي ، أو إسلامي عام ، ومجلس رئاسة تكون الرئاسة فيه دورية ، وأن يؤجلوا بحث التفاصيل فيما بعد ، بالنسبة للمسائل السياسية والاقتصادية وغيرها .

كلام خيالي ؟ كلام وهمي ؟ كلام غير واقعي ؟ كلام سذج ؟ كلام مجانيين ؟

طبعا ، هو كذلك في نظر أولئك الذين درجوا على عبارة : كفى جلدا للذات !

أما في نظر الذين يفكرون في خطوة تمنع الكارثة القادمة التي تحدث عنها كولن باويل .. كارثة ((إعادة تشكيل المنطقة)) بناء على المصالح الأمريكية التي تعنى فورا ودون أى فاصل : المصالح التوسعية

الإسرائيلية ، فإن أية خطوة أقل من هذه الخطوة لن تكون إلا نوعاً من التواطؤ مع المعتدي ضد جميع الأوطان ، وبعبارة أخرى ضد النفس .

إن الأمريكيين يعرفون جيداً حالة التشعب بالسخط والغليان التي يعيشها الشارع العربي ، وقد سبق لهم أن تصرفوا في السابق (بعد نكبة عام ١٩٤٨) حياء علمهم بحالة التشعب بالسخط والغليان تصرفاً شديداً الخبث والدهاء ، إذ التفوا على مطلب الشارع بالتغيير واستبقوا التغيير المطلوب بأن رتبوا مجموعة من الانقلابات المفبركة التي أدخلت المنطقة في دوامة تعسة من الدوران في فلك المعتدين ومن استنزاف الذات في الصراعات والحروب الأهلية التي استهدفت في الغالب خيرة عناصر الأمة وشبانها الأوفياء .

ونحن نلاحظ اليوم كيف يعمد الأمريكيون إلى اجتذاب وتجنيد وتربية عناصر محسوبة على الأمة لكي يموهوا بها ويحققوا بواسطتها انقلاباتهم الجديدة .

وليس أخطر من بقاء الوضع الراهن على ما هو عليه دون تغيير إلا التغيير الذي يضع على رأس الأنظمة عملاء جاهزين للقفز على السلطة رافعين شعارات وطنية أو قومية أو دينية ، ويدخلون المنطقة في دوامة جديدة من الصراعات والحروب الأهلية والاضطهاد والقمع الذي يستهدف خيرة الشبان ونخبة الواعين في الأمة .. فحذار حذار حذار .. حذار من بقاء الوضع كما هو ، وحذار من تطفل العملاء على التغيير .

